

## الطاعون.. رواية تقارب بين وهران ووهان

كيف جعل ألبير كامو من الطاعون وباء وجوديا فلسفيا قبل أن يكون مرضيا



مبيعات أعمال ألبير كامو تضاعفت في مطلع سنة 2020، مع انتشار فايروس كورونا. وذكر موقع "إيديستا" الذي يعرض إحصائيات مبيعات الكتب في فرنسا أنه تم بيع 1700 نسخة من رواية "الطاعون" في أواخر يناير. كما صعدت الرواية لتصبح من أفضل الكتب مبيعا على نسخة موقع أمازون الإيطالية.



حكيم مرزوقي  
كاتب تونسي

كورونا "قورونا" قاب قوسين أو أدنى من أن يصبح وباء يثير الهلع، ويفعل فعله في النفوس والأفكار، كما في البورصات المالية والسياسات الدولية.. إنه يدق طبول حرب عالمية من نوع آخر. ووهان الصينية، موطن هذا الفايروس القاتل، يمكن تشبيهها بوهان الجزائرية، المسرح الافتراضي لأحداث رواية "الطاعون" للفرنسي ألبير كامو (1913 - 1960)، وذلك من حيث الرمزية والدلالة والأسئلة الوجودية.

ألبير كامو، الكاتب والفيلسوف الحاصل على جائزة نوبل للآداب عام 1957، كتب روايته "الطاعون" في أربعينات القرن الماضي، وطرح سؤالاً في غاية الحدة والخطورة: ماذا بإمكانك أن تفعل إزاء طاعون يجتاح مدينتك التي أعلنت مغلقة ومعزولة.. لا مغادرين ولا قادمين.. وأنت في حالة ترقب وانتظار. انطلعت الأوصال بسبب عدو يجتاح العروق والشرايين وينفذ من مسامات جسمك، ولا مجال لمقاومته إلا عبر ما تمتلكه من مقاومة داخلية ومجهولة المصدر. إنه الأسر في أفعل أشكاله، ولا حيلة في مدينة يحاصرها عدو غير مرئي إلا التفرج على موت الجردان الناقلة للمرض، والتفكير في سبيل الخلاص وسط الإحساس بالعجز والشلل إزاء قدر أحق وجبان.

## وباء الاحتلال

لنتوقف قليلا عند أزمنة وظروف وملايسات كتابة هذه الرواية المتخيلة، ذلك أن الطاعون لم يزل حقيقة، من مدينة وهران الجزائرية التي تجري فيها الأحداث، فمن أين جاء هذا الكاتب الفرنسي الأصل، الجزائري النشأة، بهذا التحليل الافتراضي ليريكنا في مواجهة أسئلة صعبة.. وصعبة جدا؟

رواية "الطاعون" كتبت عام 1947 أي أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر، وبعد ما يقارب السنتين من انتهاء الاحتلال النازي لفرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية.

ولهذا التوقيت أثر كبير لدى ألبير كامو، المثقف المساند لحريات الشعوب في تقرير مصائرهم، رغم ما أثير حوله من تؤولت، كونه من جماعة "الساق السوداء" أي الفرنسيين المولودين والمقيمين في شمال أفريقيا، فترة الاستعمار.

"وباء الاحتلال" طال فرنسا الاستعمارية أيضا، ولم تستطع التخلص منه إلا عبر تدخل الحلفاء من الخارج في واقعة إنزال النورماندي الشهيرة، إلا أن "وباء الاحتلال الفرنسي للجزائر" وقع التخلص منه عبر ثورة من الداخل، غيرت ما في الرووس وما في الشوائب والإحالات المتعلقة بخلفية ألبير كامو، الشيوعية قبل اعتناقه للفكر الوجودي.

في هذا الصدد، يقول الكاتب والشاعر الأندلسي الراحل أمجد ناصر "رواية كامو، التي كانت تسيير بمحاذاة الاحتلال الألماني، وقت كتابتها، لم تبق الدرس الفرنسي، فالطاعون الذي أصاب وهران صنع مقاومة داخلية للوباء، غير من سلوكيات أناس كانوا، حتى تلك اللحظة، لاهين ومنغمسين في شؤون حياتهم الخاصة". ويضيف ناصر "أن التحدي الذي طرحته الجثث الملقاة في الشوارع، والجرذان التي احتلت وهران، هو أن على المدينة

## كورونا ووهان تشبه طاعون وهران في نشر الرعب والإثارة

يستنطقهم -بلا رحمة- عن كل ما أسلموا الأمر إليه. يبدأ بحادثة عرضية، تحسبها كبة من الكبوات، ثم يستدرجك إلى ما لا تحمد عقباه.. ياخذك إلى مساعلة وجودية عن طريق سؤال ساذج وبسيط.

**أية معركة يريد ألبير كامو؟ أي سؤال وجودي يريد اجتراحه ابن وهران الجزائرية وصاحب «الغريب» بقوله على لسان بطله «كأنني مسؤول بصورة غير مباشرة، عن موت آلاف الناس»؟**

كل الجمل ملغزة لدى كاتب "الغريب" و"الإنسان الثائر" و"مأساة سيزيف" و"كالبغول".. كل الأسئلة محيرة.. وكل قرائه يختلفون.. من أين أتيت يا "ألبير" بكل هذا المكر، وكيف جعلت من الطاعون وباء وجوديا فلسفيا قبل أن يكون مرضيا؟

أبها القارئ لـ"الطاعون" لا تصدق أن هذا الكتاب مجرد رواية تتحدث عن وباء حل بوهان الجزائرية في أربعينات القرن الماضي، لا تخلص بين جزائرية أو فرنسية ألبير، لا تظن أن الرجل مجرد فرنسي حالم أو جزائري ثائر.. إنه لا يصيب إلا في العمق.

أبها المدعورون من فايروس كورونا، هل علينا أن نذكركم بأن ألبير كامو، لم يكن يمزج في رانته "الطاعون" إذ نجح الطبيب "ريو" و"كاستيل" بإنتاج مصل مضاد، أعطى مفعولا في وجه الطاعون، ليترقب "ريو" نشر الإحصاءات العامة التي كانت تداع في مطلع كل أسبوع، فإذا هي تكشف عن نهاية الوباء.

كورونا -وبعيدا عن كل نظريات المؤامرة- هو ينسبه "الطاعون" من حيث الدلالة والسياق والإحالة، ذلك أنه ينشر الرعب والإثارة.. ما قيمة عمل أدبي لا ينشر الرعب والإثارة؟

طاعون ألبير كامو، ينتقل العدوى.. عدوى الإبداع.. ويتحدث عن مدينة مصابة، في حين أنها ليست مصابة. ووهان الصينية تشبه تماما، وهران الجزائرية في الأربعينات، ووفق مخيال ألبير كامو، ذلك أن ما يروى أخطر بكثير مما يحدث.

اكتفى بالبقاء نظرة عليه ثم قام بركنه جانبا، لكن وبعد تكرار حوادث موت الجردان يبدا الطبيب بالتساؤل "أمن المعقول أن يكون الطاعون...؟". الحقائق تبدأ بسؤال.. لا بل باستنكار واستغراب واستهجان.. هكذا يرمي بنا ألبير كامو في جحيم سنته وهو القائل في أول جملة من رواية "الغريب": اليوم ماتت أمي.. وربما البارحة، لست أدري.. نفس "السذاجة" يبدأ بها كامو، رواية "الطاعون" عند رؤية البطل لجرذون ميت، يطرده جانبا ليبدأ بسؤال أكبر من مجرد جرذون ميت في "الطاعون" أو برقية إخبار ب وفاة أم في "الغريب".

كل شخصيات ألبير كامو، في رواياته ومسرحياته، من الأستاذ "مارسو" في "الغريب" إلى الإمبراطور "كاليغولا" في المسرحية التي حملت اسمه، ووصولاً إلى الطبيب "ريو" في "الطاعون"، تبدأ من التعرّف في حادثة ثم تنتهي إلى قاجعة.

من هنا يستهل روبرت زاريتسكي، أستاذ التاريخ الفرنسي الحديث بجامعة هيوستن، مقاله في مجلة فورين أفيرز الأميركية، بقوله "تغطي شخصيات القصة طبقات اجتماعية مختلفة من الطبيب إلى المطلوب لدى العدالة، ويصف وقع الوباء على الطبقة الشعبية" خاتما قوله بكلمة "رواية الطاعون هي أول نجاح كبير للكاتب ألبير كامو، من دون منازع".

## الوباء لا يفرق

يضع ألبير كامو، جميع الشرائح الاجتماعية ومختلف الطبقات والثقافات، أمام سؤال واحد يتعلق بالموت، فنكتشف معه أن لا فرق بين واحد وآخر أمام هذه المعضلة الوجودية.. ألا تلاحظون أن الكلمات الواقية من الكورونا الآن، تحدد في أشكالها جميع البشر في المطارات على مختلف أشكالهم؟

"الطاعون" رواية تشابه فيها الجردان كما يوحي للقارئ من الوهلة الأولى، تختلط عليه الشخصيات المنتمية إلى الطاقم الطبي في وهران الجزائرية، تتشابك الأمكنة في المؤسسات والبنائيات، تصل إلينا من خلالها الروائع والقاذورات.. لكن ألبير كامو، مصر على نفس الفكرة، الموت يجمع ويساوي بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون. ألبير كامو، خطر على اطمئنان كل قارئه،

الطبي، في "الطاعون" .. يمسك بجرذون ميت وهو يقول "ما لم ندركه نتيجة استغراقنا الدائم في ذواتنا، أن الطاعون والحروب تحصد الناس على حين غرة". ويربط بعض النقاد بين رمزية الرواية واحتلال النازيين لفرنسا خلال الحرب العالمية الثانية، مستندين في نظريتهم إلى تجربة كامو، خلال تلك الحرب، حيث كان ضمن فريق المقاومة الفرنسية، ومحررا سرييا لصحيفة "كومبات" أي "المعركة".

أية معركة يريد ألبير كامو، ويرمز إليها في رواية "الطاعون"؟ أي سؤال وجودي يريد اجتراحه ابن وهران الجزائرية وصاحب "الغريب" بقوله على لسان بطله "كأنني مسؤول بصورة غير مباشرة، عن موت آلاف الناس"؟

أنت تقتل الناس الأبرياء مجرد تصديقك لفكرة، دون التمعن فيها.. يا لظفاعة الصورة، وحماقة القائلين باسم القوانين والذائدين عنها.. أنت ترتكب جريمة مجرد أن تصدق عرفا نصا قانونيا، يبدو في ظاهره مساندا للحقيقة، في حين أنه يختفي وراء التبسات كثيرة وموحشة.

ما أغرب الفكرة التي ذهب إليها كامو، في "الطاعون"، وما أصعب شرحها للذين وجدوا "الطاعون" مجرد قصة تحكي وباء يجتاح مدينة وهران ويمنع المغادرين والقادمين إليها، من خلال طاقم طبي وشرائح اجتماعية تقرا على أكثر من مستوى.

لنتوقف قليلا، وننظر إلى كورونا.. ألا يخفى كامو، خلف كل كمامة وسؤال، وي طرح ذات السؤال على كل موبوء أو واقف خلف الوباء؟

الجرذان تجتاح مدينة وهران، جثتها الميتة تعلن الموت كما هو المشهد الأول من الرواية حيث يسرد كامو أحداث الرواية التي تبدأ على لسان شاهد غامض، حين يرى الطبيب برنارد ري، ذلك الجرذ اللعين ميتا أمام عتبة البناء الذي يسكن فيه. لم يعره أدنى اهتمام حينها، حيث

رولان بارت بإعرايه عن قلقه من أن المجاز، أو الاستعارة، يجعل من الحدث التاريخي مجرد حدث عرضي. مدينة وهران الجزائرية لم تصب بالطاعون في أربعينات القرن الماضي بل قبل ذلك بمئة عام كما تؤكد الوثائق التاريخية، لكن كامو جعل من الطاعون ذريعة ينسج على منوالها أفكاره فباتت مثل الفرضية الرياضية التي يقترحها العلماء لإثبات صحة ما يريدون قوله.

## القدر الإلهي

أما أخطر ما ذهب إليه هذا الكاتب الفرنسي الإنشكالي، فهو كيفية قراءة الوباء لدى الفئات العريضة من الناس، وربطه بالقدر الإلهي بغية التصالح معه والرضاء به كقدر محتوم جاء على شاكلة عقاب جماعي.. وهو ما نسمعه اليوم -بالفعل- على منابر المساجد التي يتحكم فيها الإسلاميون عند معرض حديثهم عن فايروس كورونا.

هذا التبرير ليس جديدا، وقد وجد له التماسا في أقدم الحضارات البشرية، إذ ارتبطت الأوبئة بالغضب الإلهي كما ورد منذ آلاف السنين، بلحمة "اتراخيسيس" البابلية، حيث يزعم ضجيج البشر المتكاثرين الإله "إنليل"، فيأمر "اللجنة المركزية" لآلهة بإسكانه في قوله "إنه يثقل على جأ ضجيج البشرية.. وهذا الصخب الذي يحدثونه يمنح عيني من الرقاد.. فليكن ثمة طاعون يستكثهم".

السؤال المرعب هنا، هو ما الذي استفز الإله حتى يسقط كل غضبه على البشرية؟ وهل هناك "بشرية" معينة، دون غيرها؟ ولماذا الصين دون غيرها كمنطلق للفايروس؟ تماما كالسؤال الذي يطرح على ألبير كامو، في أربعينات القرن الماضي: لماذا الجزائر المستعمرة فرنسيا، وفرنسا المستعمرة نازيا؟ "ريو" واحد من المنتمين إلى الهبلج

مبيعات أعمال ألبير كامو تضاعفت في مطلع سنة 2020، مع انتشار فايروس كورونا. وذكر موقع "إيديستا" الذي يعرض إحصائيات مبيعات الكتب في فرنسا أنه تم بيع 1700 نسخة من رواية "الطاعون" في أواخر يناير.

